الدرس الرابع
أهمية دراسة التاريخ

التاريخ هو ظاهرة اجتماعية تجسد مجمل أنماط الفعل الإنساني في الحضارة والثقافة والمدنية، لم يكتسب أهميته المعرفية وأهليته الفكرية إلا في العصر الحديث، وذلك بعد أن اكتسب معنى أشمل وأوسع، بحيث بات يعني جميع أشكال الحياة الاجتماعية وتجليات التطور المادي والمعنوي في علاقتها بالأشكال والتجليات الأخرى، بل إن التاريخ كما نعرفه الآن يعد فرعاً متقدماً من المعرفة له منهجه ومقوماته. وهو أمر حديث، بعض الشيء، فمن المؤكد انه لم يوجد وجوداً حقيقياً قبل القرن التاسع عشر. والمقصود هنا، إن التاريخ نمط من أنماط المعرفة العلمية المنضبطة التي نضجت بنيتها المنهجية والنظرية في سياق التطور المذهل للعلم الوضعي. وعليه، فأن التاريخ نوع من أنواع البحث العلمي، ويندرج من حيث الأصل تحت ما نسميه (العلوم)، والتاريخ هو العلم الخاص بالجهود الإنسانية، أو محاولة تستهدف الإجابة عن الأسئلة التي تتعلق بجهوده في الماضي.

في الكثير من الأحيان نجد أن هناك نظرة دونية لمكانة التاريخ في نفوس الكثير من أفراد المجتمع، ولم يقتصر هذا الأمر عند هذا الحد، وإنما نجد أن مؤسساتنا الأكاديمية، أقسام التاريخ، هي الأخرى أخذت تعاني من مسألة ماهية التاريخ وما الفائدة من دراسته؟. وهذه الإشكالية بطبيعة الحال جاءت نتيجة الخلل الذي أصاب عملية التكوين البيداغوجي للباحثين. ونتيجة لذلك، نجد أن المؤرخ، المبتدئ منهم والمتمرس، أخذته الظنون أن البحث التاريخي ما هو إلا اختبار مواد تاريخية من عدة كتب أو مقالات، وترتيبها من جديد لكي تصاغ في كتاب آخر أو مقالة أخرى. وهذا ليس ذنبه، لأن النظام المتبع في التدريب التاريخي يرسخ في داخله الاعتقاد بأن (التاريخ) هو بعض الكتب المقررة أو مجموعة من القراءات الخارجية التي يطلب منه مراجعتها. ولكن، علينا التأكيد على أن التاريخ شيء أكثر من التسلية، وليس المقصود منه أن يشبع فضولنا أو يشغل ذاكرتنا، فالتاريخ علم وينبغي أن يكون كذلك، وهدفه أعظم سموا. وهكذا نجد

التاريخ قد شهد خلال القرن التاسع عشر ما يمكن أن نسميه ثورة في ميدان الدراسات التاريخية، وكانت هذه الثورة هي الأساس الذي قامت عليه الدراسات التاريخية الحديثة. وأصبح التاريخ علماً يهاجم المجهول من اجل الكشف عن غوامضه واسراره.

على العموم، التاريخ هو وقائع وأحداث وحقائق تاريخية حدثت وظهرت في الماضي ومرة واحدة، ولن تتكرر أبداً، على أساس أن التاريخ يستند إلى عنصر الزمن المتجه دوما إلى الأمام، دون تكرار أو رجوع إلى الوراء. إن لدراسة الوقائع والأحداث أهمية كبرى في فهم ماضي الأفكار والحقائق والظواهر والحركات والمؤسسات والنظم، وفي محاولة فهم حاضرها والتنبؤ بأحكام أحوال مستقبلها.

وهناك سؤال دائما ما يتبادر الى أذهان المهتمين بالدراسات التاريخية، وهو: ما جدوى الاهتمام بالتاريخ ؟. وللإجابة على هذا السؤال، نقول: أن التبرير الأساسي لدراسة التاريخ، هو كونه ضرورة، لأنه يسد حاجة غريزة إنسانية أساسية وتفي بحاجة أصيلة من حاجات البشر الذين يعيشون في المجتمع. وكذلك لابد من التنويه إلى ضرورة التاريخ لها وجهان، فالتاريخ يقوم للإنسان والجماعة البشرية بوظيفة فعلية، بمعنى أنه يسد حاجة المجتمع إلى معرفة نفسه ورغبته في أن يفهم علاقته بالماضي، وعلاقته بالمجتمعات الأخرى وثقافاتها. ومن هنا، لا يمكننا معالجة المشاكل والتصدي للتحديات التي تواجه الفرد أو المجتمع من دون العودة إلى جذورها في الماضي، لأن كل مشكلة من المشكلات التي تعترض الإنسانية لها جذورها وأسبابها المغروسة في التراث، الذي ورثته عن الأجيال السابقة. ونحن العرب أحرص الناس على تلك الحقيقة، لأن التاريخ يطل علينا من نوافذ متعددة، والتاريخ العربي بأمجاده وتقاليده وبطولاته من أهم مقومات ودعائم الوحدة والقوة. وعندما نتحرى عن أسباب وعلل النكبات والمآسي والأخطاء التي حلت بنا، نجد أنفسنا نرجع بدون وعي إلى التاريخ وكتب التراث لنقرأها ونستنتج منها.

وعلى الرغم من هذه الصورة المثالية التي نقدم لها عن أهمية التاريخ في حياة الإنسان، يطل علينا أحيانا من يحاول إظهار التاريخ على أنه مجرد أوهام

تدور في رأس المؤرخ، والتي هي عكس ما يدعي متناسيا أن الغاية من دراسة التاريخ لا تعني الوصول للحقيقة المطلقة بقدر ما هي محاولة لشد انتباه الأفراد أن الحلول لبعض مشاكلنا تكمن في عمق فهمه لتاريخه.

ولكي ندرك أهمية الماضي وضرورة دراسة التاريخ، والاهتمام والعناية بتحقيق ونشر التراث التاريخي المكنوز في دور المحفوظات والمكتبات، فلنفرض جدلا أننا استطعنا بطريقة أو أخرى أن نقطع صلتنا بالماضي قطعا تاما أي نحرق دور الكتب، وندمر كل آثار العمران الراهنة، ثم ننظر إلى حال الإنسان ومصير الحضارة بعد ذلك ؟. الحقيقة أن الإنسان سوف يحاول عندئذ أن يعود لكي يبدأ من جديد، بعد أن فقد خبرات الماضي التي هي تراث الأجداد منذ آلاف السنين. ولهذا لا غنى للإنسان عن دراسة ماضيه، ومعرفة تاريخ تطوره، وأعماله وآثاره، وأوجه النشاط الإنساني ومقومات الحضارة.

لقد تخطت الدراسات الحديثة المفهوم التقليدي للتاريخ، فلم يعد التاريخ اليوم ما كان عليه بالأمس، أي لم يعد ذلك العلم الذي يهتم بالماضي فقط، بل أصبح علما لا نهاية له وهو مستمر باستمرار ووجود الإنسان أي الحياة أو التفاعل بين الإنسان وبيئته. فهناك دائما وأبدا حركات ذهاب وإياب داخل التاريخ، بين الخاص والعام، بين الماضي والحاضر. فأصبح مطلوب من التاريخ أن يساعدنا على فهم آليات التطور والتبدل المستمر للإنسان، يرى فهم الحاضر الذي هو في الواقع امتداد للماضي التاريخي. والماضي الذي يدرسه المؤرخ ليس ماضيا ميتا، بل هو ماض بمعنى مازال يحيا في الحاضر، ولكن أي فعل ماض لا يعني شيئا للمؤرخ حتى يتسنى له فهم الفكر الكامن وراءه. ومن ثم فإن كل التاريخ ومن وجهة نظر بعض المؤرخين تاريخ فكر، حتى أن بينيدتيو كروتشه (Benedetto Croce) يعتبره كله معاصرا، ولا يستطيع أن يفهم حاضره دون أن يفهم الماضي، والتأمل في الماضي يبعد الإنسان عن ذاته، ومعرفة الإنسان بنفسه لا تقف عند حد معرفته الشخصية التي تفرق بينه وبين إنسان آخر بل أقدر على حسن التصرف في الحاضر والمستقبل.

وفي وقتنا الحاضر اتسع مجال الدراسات التاريخية إلى حد أنه أصبح بلا حدود، فتنوعت اهتمامات المؤرخ وشكلت نمطا جديدا من الكتابة التاريخية تعرف بالتاريخ الجديد (La Nouvelle Histoire). فبعد أن كانت عناية المؤرخ منصبة على التاريخ الوقائعي والسياسي تحول اهتمامه إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لفترة معينة، ثم أدرك أن العامل الاقتصادي لا يمكنه وحده من تفسير الحدث التاريخي فاسترجع آنذاك التاريخ السياسي مكانته من جديد لكن في شكل ومفهوم أوسع وبأوجه متعددة بإقحام عناصر جديدة فيه كالفئات الضعيفة والمهمشة. كما وجب إعادة النظر في تحقيب التواريخ القومية والمحلية على ضوء قراءة أخرى للوثائق وللأحداث التاريخية.

فلم تعد دراسة التاريخ مجرد استذكار للماضي فحسب، وإنما غدت عنصر استلهام للمجتمع من أجل البناء المستقبلي، وذلك عبر تحفيز الشباب نحو النهوض والارتقاء من أجل مستقبل يحقق الازدهار والرقي. وفي هذا الاتجاه كتب الدكتور فاروق عمر فوزي معلقا على هذه المسألة بالقول: "إن دراسة التاريخ هي أهم الطرق في عملية التحليل السياسي للحاضر الذي نعيش فيه. فنحن ندرس الماضي لنضع أيدينا على الخيوط التي تنسج منها الحاضر فنفهم قوامه وتركيبه، ثم أن الأمر لا يتوقف في دراسة التاريخ عند حد معرفة الحاضر ولكن يتعداه إلى توضيح الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه الأمة نحو مستقبلها، فالحاضر كما هو معروف ليس ثابتا ولكنه متطور ومتغير وهو مفترق طرق لعدد كبير من المستقبلات ومن الضروري أن تبين الأمة أي اتجاه تسير فيه".

ومن خلال ما سبق، يفرض علينا أن نفكر ما السبيل الأنجع لدراسة التاريخ وكتابته؟. وما منهج البحث الواجب إتباعه في دراسة التاريخ وكتابته ؟. إن المنهج البحث التاريخي يعني هنا المراحل التي يسير خلالها الباحث حتى يبلغ الحقيقة التاريخية قدر المستطاع، ويقدمها إلى المختصين تحديدا والقراء عموما. وتلخص هذه المراحل في تزويد الباحث نفسه بالثقافة اللازمة له ثم اختيار موضوع البحث، وجمع الأصول وإثبات صحتها، وتعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه، وتحري نصوص الأصول وتحديد العلاقة بينها،

ونقدها نقدا باطنيا إيجابيا وسلبيا، وإثبات الحقائق التاريخية، وتنظيمها وتركيبها، والاجتهاد فيها، وتعليلها، وإنشاء الصيغة التاريخية ثم عرضها عرضا تاريخيا معقولا.

وينبغي أن نلاحظ أنه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية الوصول إلى الحقيقة المطلقة، وهذا أمر غير ممكن لعوامل مختلفة مثل ضياع الأدلة وانطماس الآثار، ومن ذا الذي يمكنه معرفة الحقيقة الكاملة في الماضي أو الحاضر؟. فالحقيقة التي يصل إليها المؤرخ نسبية، وكلما زادت نسبة الصدق فيها اقترب التاريخ أن يصبح تاريخيا بالمعنى الصحيح في حدود إمكانه.

وبناءا عليه، ظهرت أهمية البحث التاريخي في ميدان الدراسات الإنسانية، بهدف استعادت وتركيب أحداث ووقائع الماضي بطريقة عملية في صورة حقائق علمية تاريخية لحادثة معينة. ومن اجل ذلك لابد من استخدام المنهج التاريخي في هذه العملية. إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن التاريخ هو أكثر العلوم الإنسانية اكتمالا، وهو في ذات الوقت أخطرها إذ هدفه الرئيسي هو فهم الإنسان.

وهذا يدفعنا إلى طرح السؤال التالي: هل هناك فوائد من وراء دراسة التاريخ ؟. إن الجواب على مثل هكذا سؤال يرجع بنا إلى استقراء الكيفية التي يكتب بها التاريخ، والغاية التي يحددها الباحث من وراء الكتابة التاريخية. وهذا يدفعنا إلى القول أن التاريخ علم يمكن الانتفاع به لتوسيع المدارك وتعويد الناس العدل في الحكم، ووضع الأحداث والأشخاص في وضعها الصحيح على مسرح الشؤون العامة. فالتاريخ يكسبنا تصورا صحيحاً لما هو عارض مؤقت بالقياس إلى ما هو ابدي في حياة الإنسان. وتدور جهود المؤرخين إلى الماضي، بهدف استلهام أحداثه والتأمل فيها، ومعرفة كل ما طرا عليها من تغيير، يكشف لنا عن الدروس التي تفيد في توجيه حاضرنا وفهم مستقبلنا، وكيف ينبغي له أن يأتي فالمستقبل ملتقى أنظار الجميع ومحط آمالهم. وعليه يمكننا ذكر بعض من تلك الفوائد التي يمكن تحقيقها من وراء دراسة التاريخ:

1. **غاية التاريخ الأساسية تكمن في فهم قيمة الإحداث وتفاعلها مع الفكر الإنساني أكثر من معرفة الأحداث في حد ذاتها. ولا يحصل الفهم إلا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار جملة العوامل المتدخلة في صنع الحدث التاريخي (سياسية، اجتماعية، اقتصادية، ثقافية، داخلية، خارجية) أي أنه يحرر الإنسان من أعباء الماضي ويكيف سلوكه في الحاضر على ضوء الماضي وفي المستقبل على ضوء الحاضر، وذلك على أساس أن حياة الإنسان تراكمات تجارب، وهو بذلك يساعدنا على التعرف على أحوال الناس والاقتداء بأخلاقهم وسلوكهم.**
2. **أن التاريخ خزان كبير للتجارب المتراكمة ومجال تأمل واعتبار، فهو يعين على فهم الأحداث العامة والاتجاهات المعاصرة.**
3. **أن التاريخ يدور حول المجتمعات الإنسانية وما أصبحت عليه، وتطورها خلال تعاقب العصور، والقوى التي كانت تحركها، والدوافع والنزعات- العامة والخاصة- التي شكلت أحداثها، أي أن التاريخ دراسة تتناول الطبيعة البشرية في كل الوقت وتتعامل معها.**
4. **للتاريخ غرض أخلاقي فهو يساعد على نبذ التعصب والتحيز. والتاريخ أساس تعليم الشعوب، وينبوع ثقافتها. وهناك من يرى أن الفائدة الأخلاقية هي الأكثر أهمية مما تجعل للتاريخ قيمة من حيث التربية، وأن دراسة التاريخ دون سواها هي أصلح الدراسات لتعويد الإنسان الفضائل الخاصة والعامة، لأنها توسع أفق العقل وترفع مستوى الأخلاق.**
5. **يساهم التاريخ في تغذية شعور الإنسان واللاشعور، ذلك أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي هو في حاجة إلى ذاكرة تخلد أعماله وتعينه على بناء شخصيته ووقايتها من الذوبان. وسواء أكانت هذه الذاكرة فردية أو جماعية، فهي تميز الإنسان عن بقية الكائنات الأخرى حتى قيل أنه حيوان اجتماعي وكذلك أيضا حيوان تاريخي، أي كائن لا يستطيع العيش بدون تاريخ.**

6. **أهميته في الدراسات ذات البعد الديني، إذ يعتبر التاريخ علما تكميليا للعلوم الدينية التي كانت تحتل مركز الدائرة بالنسبة للعلوم الأخرى الملتفة حولها السابحة في فلكها.**
7. **انه يساهم في إثراء خيال القصاصين والروائيين الذين ينطلقون أحياناً من حوادث تاريخية لكتابة قصصهم أو رواياتهم، لان القصص في التاريخ ممتعة على الدوام، وقد يبلغ الذروة في التأثير في النفس تبعا لطبيعة الموضوع وبلاغة التعبير، ولا ننس أن المتعة الحقيقية في التاريخ تجعل الموضوع في مصاف أسمى روائع الأدب. وهنا من القصاصين والروائيين الكثير من اقتبسوا من قصص التاريخ الكثير، من أمثال وليم شكسبير وجرجي زيدان وغيرهم كثر.**